مالك يصادم الطغيان

بعد أن ارتفعت مكانة ومنزلة الإمام مالك عند الخاصة والعامة، حتى جلس الخلفاء بين يديه، وقرأ الأمراء له، وأخذ الخلفاء بمشورته، وصدع الناس لما أمرهم به، حسده على ذلك بعض أهل العلم ممن يؤثرون الدنيا ويسعون إليها، ووشوا به عند أمير المدينة جعفر بن سليمان في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور سنة ١٤٧هـ، وكانت التهمة: أن مالكًا لا يرى أيمان البيعة للخلافة هذه بشيء، ولكن هل قال مالك ذلك حقًا؟

إن الذي أفتى به رحمه الله أن يمين المُكره لا تُلزمه، وذلك عملاً بالحديث الموقوف عن ابن عباس: (ليس لمكره ولا لمضطهد طلاق)، ولم يكن سبب المحنة هو التحدث بهذا الحديث وحده، ولكن المشكلة في رو ايته وقت الفتن واستخدام الثائرين لذلك الحديث ولمكانة الإمام مالك العلمية لتحريض الناس على الخروج على الخليفة، فلما بلغ الأمر مسامع الخليفة، أمر الإمام مالكًا ألا يحدث الناس بهذا الحديث وهذه الفتوى، ونهاه عن ذلك بشدة، فلم يستجب مالك رحمه الله لهذه الضغوط ولم يسكت، فقد كان يرى في السكوت عنه كتمانًا للعلم الذي استودعه إياه الله عزوجل، وقد نهى الله عزوجل ورسوله الكريم ﷺ عن كتمان العلم وتوعد فاعله بالنار.

ولِعِلمِ أبي جعفر المنصور، أن الإمام مالكًا لن يسكت عن نشر العلم، فقد أمر واليه على المدينة جعفر بن سليمان، أن يدس على مالك من يسأله عن هذا الحديث على رؤوس الناس، وبالفعل أجاب مالك على المسألة، وروى حديث ابن عباس، وعندها أرسل جعفر بن سليمان من قبض على الإمام مالك، واحتج عليه بما رفع إليه عنه، فلم ينكر الإمام ولم يخش في الله عز وجل لومة لائم، فأمر جعفر بتجريده من ملابسه، وضربه بالسياط

وجبذت يده حتى انخلعت من كتفه، وعذبه عذابًا شديدًا، وأهانه وتعمد إسقاط هيبته ومنزلته بكل هذه الإساءات، ولكن الله عز وجل قد رفع قدر مالك بعد هذه المحنة، وازداد رفعة بين العالمين وهذه ثمرة المحنة المحمودة، فإنها ترفع صاحبها عند المؤمنين.

وعندما علم أهل المدينة بما جرى للإمام مالك، اشتد سخطهم على الوالي، وتطاولوا عليه، بل وعلى الخليفة نفسه، خاصة وأن مالكًا قد أُصيب في هذه المحنة بعجز كبير في ذراعه، فلم يقدر بعدها على رفعها إلا بمساعدة ذراعه الأخرى، وقد جلس في بيته، وشعر الخليفة أبو جعفر المنصور بمرارة ما فعل، فأرسل إلى الإمام مالك يعتذر إليه، ويتنصل مما فعله واليه، ولما جاء أبو جعفر إلى الحجاز، حاجًا أرسل إلى مالك واجتمع معه وبالغ له في الاعتذار، وذلك كله لتطييب خاطر العامة أولاً، ثم الإمام ثانيًا.

وفي هذه المحنة اختلفت النظرة إلى الحديث النبوي، بين الإمام مالك العالم التقي الرباني، وبين الحكام، فرأى مالك في إذاعة الحديث نشرًا للعلم وتبصيرًا للناس، فلم يكتمه إرضاء للحكام ولا لأي سبب مهما كان، لقد رأى الحكام في إذاعته تحريضًا على الفتنة والثورة، لأن فيه بيانًا ببطلان بيعة الخليفة، وصادف ذلك خروج محمد بن عبد الله العلوي الملقب بالنفس الزكية على المنصور، ومطالبته بالخلافة لنفسه، وكان في المدينة وذلك سنة ١٤٦هـ.. ولكن العجيب في موقف مالك ﷺ أنه لم يلتفت لأمر السلطان وعصاه ولم ينفذه في الوقت الذي يدعو فيه البعض بالسمع والطاعة للحاكم حتى ولو كان يدعو للفجور والزذيلة ويهدم عرى الإسلام.! فهل يتعلمون من مالك الذي كان يؤمن بأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.؟!

ومهما يكن من مبررات الخليفة، والتي ساقها من أجل منع الإمام من التحديث، يبقى ثبات الإمام مالك وجهره بالحق، وتعظيمه للعلم، وصبره على

الضرب والتجريد والإهانة، إذ ضرب لعلماء الأمة كلها، مثالاً يحتذى به في الصبر والثبات، نسج على منواله أئمة الدين من بعده مثل الشافعي وأحمد بن حنبل، ممن ابتلوا في ذات الله، وصبروا على الحق وجهروا بالعلم، ورفعهم الله عزوجل بذلك لأعلى الدرجات بين العالمين.

قال الدراوردي: لَمَّا أحضر مالك لضربه في البيعة التي أفتى بها - وكنت أقرب الخلق منه - سمعته يقول: كلما ضُرب سوطًا: "اللهم اغفر لهم؛ فإنهم لا يعلمون" حتى فرغ من ضربه، وقيل: إن مالكا ضرب ثلاثين سوطًا، وقيل: نيفًا وثلاثين، وقيل: ستين، وقيل سبعين سوطًا، وقيل مئة سوط.

ويذكر الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء: أنه بعد ضرب الإمام مالك أمر جعفر بن سليمان أن يطاف به في المدينة، فيقول: "لما ضُرب مالك حُلق وحُمل على بعير، فقيل له: ناد على نفسك، فقال: "ألا من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني؛ فأنا مالك بن أنس، أقول: طلاق المكره ليس بشيء"، فبلغ ذلك والي المدينة فقال: "أدركوه، أنزلوه". وحمل مغشيًا عليه إلى بيته.

قال مطرف: رأيت آثار السياط في ظهره، قد شرَّحته تشريحًا، وكان حين مدوه في الحبل بين يديه خلعوا كتفه، حتى ما كان يستطيع أن يُسوّي رداءه.

وقال إبراهيم بن حماد إنه: "كان ينظر إلى مالك إذا أقيم من مجلسه حمل يده بالأخرى".

وأمام هذا الموقف الكبير، والحدث المثير، يستطيع القارئ أن يدرك تعظيم العالم الرباني لعلمه، وتقديسه لمقامه، وإيمانه أن العلم لا ينحني لأحد، مهما كان حجمه ومكانه وسلطانه، ولا يُكتم من أجل أحد مهما علت أحواله وأمواله، وهو مثال يباين حالة أولئك العلماء الذين يُسخِرون علمهم للأهواء والشهوات، ويجعلونه خادمًا للسلاطين والحكام، ويجهزون لهم ما يُرضي أمزجتهم ورغباتهم من الفتاوى الضالة الآثمة.

من أجل هذا الثبات والإصرار على الحق وإظهار العلم، نال العلماء مكانتهم العظيمة في دنيا الناس، واستحقوا أن يكونوا قادة المجتمع ورواد الأمة، والزعماء الحقيقيين الذي يقتربون من مشكلات الناس ويحملون همومهم، فهم الصادقون في دينهم وأخلاقهم، وشجاعتهم هائلة لا حدود لها، لا ترهب طاغية ولا تعبأ بسلطان.. لقد ارتعد والي المدينة من نداء مالك حينما طوف به في شوارعها، لأنه يخشى أن يستوعب الناس محنته، ويسمعوا لقوله، ويدركوا ما أراد الوالي وخليفته أن يتعامى على أذهانهم.

وكان الإمام مالكا في قرارة نفسه غير راض كل الرضا عن العباسيين أو سابقيهم من الأمويين، لأنه سئل ذات مرة: هل يجوز على قتال الخارجين الخلفاء؟ فأجاب قائلا: يجوز إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز، وهى إجابة في ذروة الدهاء، لأن أحدًا من خلفاء الأمويين أو العباسيين لم يكن عشر معشار ما فى عمر بن عبد العزيز من فضل وعدل.